دموع باريس

د. حسين مؤنس

رأيتها مرارا قبل أن أعرفها . ولكنها كانت بالنسبة لى شيئا بعيد المنال جدا . كنت أراها كما أنظر إلى نجمات السينما أو لوحات رسمها فنانون كبار : للرؤية فقط الرؤية من بعيد .

كانت جميلة جدا وإن كانت صغيرة الحجم . كانت كأنها دمية جميلة صنعها صانع بمهارة وحب . وكانت أنيقة : لاتراها قط مرتين فى ثوب واحد . كانت لديها سيارة حمراء من ماركة احتفت اليوم : السالمسن . ولكنها فى أيامنا كانت رمزا على الثراء ووفرة المال وأيامها كان الطلاب فى الجامعة لايملكون سيارات . كانت الدنيا أفقر بكثير مماهى اليوم .

وكانت نفسى ترتاح لرؤيتها أحيانا . كنت أجلس على أحد مقاهى شارع سان ميشيل بولفارسان ميشيل أو البول ميش كما يسميه الطلاب . لكى أراها وهى تخفى بسيارتها مجرد رؤية . وكان فى هذا كفاية .

وكنا زميلين فى درس واحد ، ولم يكن فى الدرس سوانا . كنا فى المدرسة العليا للدراسات التاريخية فى جامعة باريس وكان الدرس خاصا بصراع البيزنطيين مع البلغار . أما أنا فكنت أدرس الموضوع لأنه يتصل بتاريخ الإسلام . فقد كان البلغار حتى القرن التاسع مسلمين . وكان يهمنى أن أعرف كيف تحولوا عن الإسلام . أما هى فما فهمت قط لماذا تدرس هذه المادة الجافة قال لى أستاذنا واسمه الدكتور بيكرمان : إنها بلغارية الأصل وإن كانت اليوم كندية . أهلها هاجروا إلى كندا من زمن طويل . هناك اغتنوا وتحولوا . وقد أتت إلى باريس لأن عمها وهو ولى أمرها طلب منها أن تدرس فى باريس وتتخصص فى تاريخ بلغاريا . ودولة الروم وأضاف الدكتور بيكرمان : ولا أظن أنها ستدرس من ذلك شيئا : إنها مسجلة فى مادتى هذه من ثلاث سنوات . ولا أذكر أنها حضرت ثلاثة دروس إنها تحب اللهو والاستمتاع . وهى تنفق الألوف ولم لا ؟ هنالك ناس يولدون سعداء : مال وجمال وشباب .

وكان اسمها استاليا : ولكنها كانت مشهورة فى السوربون كله باسم استيق أو استيق الجميلة (استيق لابل) أو استيق المجنونة أو (استيق لا فول) . والجنون مكروه إلا فى الشابات الجميلات .

وكان الدكتور بيكرمان روسى الأصل . وربما كان أيضا بلغاريا وكان يعمل فى هذا المعهد فى باريس فى انتظار فرصة الهجرة إلى كندا ليعمل أستاذا فى إحدى جامعاتها فقد كان عم استيق قد تبرع بمال عريض لجامعة البرتا بداخل كندا . وكان يرشح بيكرمان لكرسى الدراسات البيزنطية . لهذا كان بيكرمان يحب استيق ويعطف عليها ويتحمل من متاعبها الشىء الكثير . وكانت لاتحضر الدرس قط وكان هذا يؤلم بيكرمان . كنت دائما وحدى معه فى الدرس وكان يقول لى : دعها . ستعقل يوما من الأيام . لكرمها خاطر عمها . ساعدها إذا استطعت اعطها مذكراتك .

– ولكن يا أستاذ إنها لاتكاد تنظر إلى .

– ستنظر إليك يوما من الأيام . أنت لاتعرف استيق .

. . .

واقترب الامتحان ، وأعددت نفسى له إعدادا طيبا . وذهبت يوما إلى الجامعة لأدفع الرسوم . وجدتها هناك . كانت فى انتظارى . الأستاذ بيكرمان قال لها إنى سأعمل لها الاجراءات كلها . تعرف أحدنا إلى الآخر . أعجبنى منها بساطتها ورقتى مرحها . بعد أن دفعنا الرسوم وأتممنا كل شىء قالت لى :

– أين تذهب ؟

– كما تشائين .

– نأخذ الشاى فى محل بولس ؟

– كما تشائين

وبولس كانت قاعة جميلة جدا للشاى . كانت تطل على حديقة اللوكسمبورج . كانت مفروشة بالبسط وكان الشاى يقدم فيها فى أوانى كريستوفل وسيفر . فى نفسى شىء يحب الفخامة والترف إنه حب الحضارة أحيانا كنت استغنى عن الغداء لكى أوفر شيئا من المال آخذ به الشاى عند بولس .

أعجبنى فيها أناقتها البالغة وزينتها التى تملأ النفس مسرة خلعت معطف الفرو الأزرق الجميل وتناوله منها الخادم . قالت وهى تضحك :

– أنت خجول .

– لا يليق .

– لا .. يليق وأنت خجول ؟

– كما تشائين . أرجو ألا يكون هناك فرق أو تكليف بيننا .

– لقد حدثنى عنك بيكرمان حديثا طويلا .. ماذا قال لك عنى .. ؟

– لم يقل شيئا كثيرا ولست فى حاجة إلى أن يقول لى أحد عنك شيئا . يخيل إلى أنى أعرفك بما فيه الكفاية .

– غريب .. هذه أول مرة نلتقى .

– لا .. لقد التقينا مرارا . أصارحك الحق كنت دائما أحب أن أراك من بعيد .. لم أكن أتوقع أن أجلس إليك مرة .. كنت بالنسبة لى شيئا مثل نجوم السينما .. استر ويليامز أو آفا جاردنر .. مثلا .. وضحكت . وجرى الحديث بيننا هونا . ثم دخلنا فى موضوع الامتحان فقالت :

– قال لى الأستاذ بيكرمان إنك ستساعدنى .

– كل ماتريدين .

– إن بيكرمان هو ولى أمرى هنا وهو الأستاذ والمراقب والمصحح . فلا بأس علينا من أية ناحية .. أريد أن أقول لاتخف .

– ومم أخاف ؟ قولى : ما المطلوب منى ؟

– اسمع ياسيدى .. على فكرة لماذا لا تنادينى باستيق .. المطلوب منك أن تجلس فى الامتحان على نحو استطيع معه أن أنقل منك .. سأجلس ورائك .. بينى وبينك .. أنا لم أقرأ كلمة .

– مراقبنا فى الامتحان سيكون بيكرمان ؟

– وهو الذى سيتولى التصحيح .

– إذن فسأفعل كل ماتريدين .. ومبروك مقدما ..

– صدقنى إنى متعبة جدا ..

وبعد لحظة صمت :

– حياتى لا تعجبنى .. إنى غير سعيدة .. إنى متعبة .. وزن الحياة على أكتافى ثقيل ..

– لم أكن أتصور ذلك .. كنت أتصورك أسعد مخلوقة فى الدنيا .

– وها أنت ذا ترى حالى .

– لا أدرى إن كنت أستطيع دعوتك للعشاء ..

– إنى مرتبطة

وهذه الارتباطات هى سبب تعبك .. دعك منها وتعالى معى إلى إنسان بسيط سآكل فى ناديا صغيرة فى شارع ليل ..

دموع باريس

- سأذهب معك... لا أدري إني مرتاحة لك... أنت رجل عادي، مطمئن... تتكلم بهدوء وثقة... أريد أن آخذ منك شيئا من ذلك كله

- كوني السيدة طيبة ربما شعرت بالسعادة

- وبعدنا معا ركبت للمرة الأولى سيارة خاصة في باريس. جلست مع أمتي في الأتسالدو. ضحكنا طويلا وتكلمنا كثيرا. أوصلتها إلى دارها في سيارتها. إنها تسكن في شارع كونديه في باسي أجمل أحياء باريس.

قالت وأنا أودعها

تصدق؟ هذه أسعد ليلة قضيتها منذ شهور.

• • •

وجاء يوم الامتحان... كانت هناك قبلي وكانت تتحدث مع الأستاذ بيكوفان. الامتحانات هناك شيء عادي لايشعر به أحد. ليست فيها هذه الرهبة العصابية التي نحيطها نحن بها هنا. جلست مكاني وجلست هي وراءي لتنقل مني كما اتفقنا. وكتب الأستاذ السؤال على السبورة. وأشعل سيجارة ومضى يقرأ كتابا. قرأت السؤال وشعرت أنها كانت تنظر إلي بعين فيها حب الدعابة يشوبه أن اللعبة أعجبتها

ومضيت أكتب بخط كبير. وتركت الطريق بيني وبين ما أكتبه خاليا لتقرأ وتفعل ماتريد. ثم أخذني مطلب الإجابة فنسيت نفسي ونسيتها ومضيت أكتب وأكتب وأنا أحسب أنها تنقل ماشاء لها النقل

قبل نهاية الوقت المحدد بدقائق نهضت ووضعت الورقة على مكتب الأستاذ ومضت مسرعة. بعد خطوات أطل وأرى ورقة بيضاء ليس عليها إلا اسمها. مع ورقة الامتحان كانت هناك قصاصة صغيرة فيها: معذرة لم أسمح لنفسي بأن أخون نفسي أو أستاذي أو صديقي. ثم كتبت عنوانها

هز الأستاذ رأسه وقال

- اعطني أنت في هذا يابني. مسكينة هذه البنت ولكنها على الأقل تحترم نفسها

راجعت إجابتي وسلمت الورقة وقلت للأستاذ

- اعطيني هذه القصاصة؟ أظن إنها لي.

- إنها لك ولك... خذها

وعندما كنت بالباب سألني

- هل ستذهب إليها؟

- لا أدري إن كان من حقي أن أطرق بابها

فسكت لحظات ثم قال

- أنا أيضا لا أدري. ولكني أحس أنها في حاجة إلى عونك. هذه الورقة استغاثة بك وبي. أنا شخصيا لا أستطيع الذهاب... سيحسبون أني أسعى للوظيفة التي وعدني بها... ولكنك أنت تستطيع

- أترى؟ هل أذهب إليها؟

- أعتقد ذلك

• • •

عندما دخلت ردهة البيت استوقفتني الفخامة. كل ماهناك كان رخاما وأثاثا وزجاجا ملونا. البوابة سيدة عجوز بدينة لاتفارق السيجارة فمها. عندما رأتني قالت:

- أنا أعرفك... أنت صديق مدموازيل الشقراء. مسكينة هذه الأمريكية! كل الأمريكيات اللاتي يأتين باريس مسكينات يحملن المال والشباب أنا أعرفهن لايعرفنه. باريس تعطيهن شيئا... أجل إني أعرف لماذا أتين إلى هنا لتتحطم

- لماذا تقولين هذا الكلام؟

- لأني حزينة على المدموازيل... أنت منذ ساعة تحمل حزن الدنيا كلها... كانت تبكي

- هي هنا إذن...

- أجل ولكن ربما كانت نائمة أو ربما كانت في القاعة البعيدة عليك أن تدق الجرس كثيرا

وظللت أدق الجرس حتى تعبت يدي.

كان السلم رخاميا فخما وكان هناك شباك كبير مزين بالزجاج الملون. جلست على السلم ومضت نحو ساعة.

ثم سمعت خطوات داخل الشقة. عدت أضغط الجرس. فتحت الباب رأيتها وعلى وجهها حزن الدنيا كما قالت البوابة. قالت كأنها لم تستغرب مجيئي.

- ادخل... كنت أنتظرك

بهرتني فخامة الشقة. كانت واسعة جميلة كل مافيها غالي الثمن. ظللت صامتا أتأمل فعادت تقول:

- لماذا لاتدخل... لماذا لاترد علي

- هل قلت شيئا

- قلت إني كنت أنتظرك...

- أحسست بذلك

- ولماذا تأخرت؟

- لي أكثر من ساعة هنا

- كنت نائمة

وجلست وجلست باكية. تركتها تبكي لأن البكاء راحة ورحمة. كانت ترتدي ملابس الصباح ولكنها خلعت الحذاء فبدت كأنها طفلة. نظرت إلي طويلا ثم قالت:

- لا أفتح إلا إذا ضرب أحد الباب...

- يستحسن أن تقولي للبوابة

- رفعت سماعة التليفون الخاص بالبوابة وقالت

- مدام فولار... إني لست هنا... أيا كان الطارق فلست هنا... ثم هو هنا

وفهمت أن العبارة الأخيرة تعنيني.

ثم نهضت وأحكمت رتاج الباب وأطفأت النور الكبير. لم يبق إلا الضوء الخافت الهادىء المتنامي عبر نافذة واسعة ملونة.

قلت

- ماهذا الذي عملت؟

- وهل كان هناك حل آخر؟

- ألم يكن هناك اتفاق؟

- لو إنسان غيرك لما ترددت في النقل منه... ولكن أنت... لا أدري... لم أستطع أن أفقد احترامك

- لم أفكر في ذلك

- هل كنت ترضى أن أكون غشاشة؟

- لا... عندك حق.

- لا أدري لماذا أطمئن إليك... من يوم اجتمعنا في قاعة بوبس وأنا مشغولة بك... لا... لا أقصد ذلك... أقصد أني كنت أحس أني أريد أن أراك

- وها أنذا بين يديك

قالت

- تعال نجلس في القاعة الداخلية... أريد أن أقول لك كلاما كثيرا... إني متعبة يا... على فكرة ماذا أناديك... هل تتصور أني أجهل اسمك

- سمي كما شئت

- ماسمك ؟
- فلان ..
- لايعجبني ..
- قلت معي كما تشائين
- اسميك تيو .. إنه اسم جميل يطلق على شيخنا في القرية .. الحقيقة اسمه تيو جران .. وأنا أحبه .. هل يعجبك الاسم ؟
- لايعجبني .. ولكن الاسم لايهم .. ليكن ماتشائين
- تيو .. إني ضائعة .. أريد أن أجد نفسي .. أريد أن يحدثني أحد ويدلني على نفسي .. لايسخر مني .. إني غير سعيدة .. عندي كل شيء ولكني غير سعيدة إني ضعيفة جدا ..
- أنت لست ضعيفة .. أنت طيبة القلب ..
- أريد رجلا إلى جانبي .. لقد مات أبي وأمي في حادث سيارة فوق امري وأمر أخي عمي .. إنه رجل كريم جدا .. أسرف في تدليلنا وهذه هي النتيجة .. إن أمي تحسن مني ولكني ألا كارثة ! كل ماأفعله هو أن أضيع مالي وعمري .. أربع سنوات في باريس لم أفعل شيئا .. إني ضائعة .. خائفة أن أضيع بلا عودة
- لن تضيعي ياأستاذ .. الدنيا بخير ..
ثم أطالت النظر إلى العينين الواسعة وقالت :
- لماذا أشعر بالاطمئنان إليك ؟
- ربما لأني أذكرك بعمك
- ألم أقل لك إن عمي هو الذي ضيعني ..
- لم نضيعي أبدا ياأستاذ ..
- إني متعبة ياتيو .. لا أريد أن تتركني .. أريد أن أنام الآن وأصحوا لأحدثك هنا .. لابد أن شكلي عجيب .. أريد أن أنام لكي تراني في صورة أحسن .. هل تنتظر حتى أنام
- نامي كما تشائين .. أنا أيضا متعب .. سأستريح هنا في هذا الصالون الجميل ..
- حسنا .. هنا في هذه الطرقة تجد المطبخ على يمينك .. الثلاجة والدواليب ملأى بالطعام .. عندك أيضا حمام واسع جميل .. إنه حمام عمي .. دواليبه ملأى بالملابس .. خذ ماتريد .. لاتشغل نفسك .. عندي حمام آخر في غرفتي ..
ثم قامت وقالت :
- إلى قريب ياتيو ..
ونهضت ودخلت جناحها وأغلقت الباب ..

● ● ●

ووجدت نفسي وحدي في ذلك البيت الفرنسي الجميل .. كل ماكان حولي ينطق بأنه فرنسي .. ذوق بديع ترى فيه خط الذوق الفرنسي من أيام لويس الرابع عشر .. حقا إن الحضارة شيء عظيم ..

وسرت إلى المطبخ .. كان بالفعل حافلا أكلت مايسر ثم دخلت حماما كأنه حمام سلطان تركي .. غسلت نفسي وفتحت الدواليب ولكني لم أمس شيئا فيها .. كانت حافلة بالملابس .. دولاب كامل كله بدلات من كل لون .. ودولاب ملابس البيت داخلية وخارجية .. حقا إن الغنى جميل !

وأردت أن أمشط شعري .. ذكرت وصية مدام أليس ألدلي راندان التي أسكن عندها من زمن طويل .. كن دائما في أحسن هيئة .. إعدت إلى الحمام واخترت قميصا جميلا جدا وأخذت بدلة أيضا .. غريب أن الملابس كانت مناسبة لي .. خلعت ملابسي ودخلت في ملابس أهل المال ..

وعدت إلى القاعة الجميلة أردت أن أنام .. قبل أن أستلقي على الأريكة نظرت إلى دولاب في غاية الأناقة تقوم عليه المرآة .. هالني مارأيت قدر هائل من الجواهر والمصوغات .. أساور وعقود وأقراط ومشابك .. شيء لم أر مثله إلا في فترينات الصاغة .. وكانت هناك نقود كثيرة .. ربطات من الفرنكات والدولارات الأمريكية والكندية والجنيهات الإنجليزية .. ونقود ذهبية كثيرة جدا .. لم ألمس من ذلك كله شيئا ولكني وقفت واجما .. وانتابني خوف .. إن مثل هذا المال الكثير له رهبة ومسئولية .. ووجوده مكشوفا معروضا على هذه الهيئة يبعث على القلق .. وهذه البنت لا لاأعرفها إلا من ساعات .. ومن الممكن جدا أن تجرى بها الظنون في ماسوراتي .

تركت هذا الكنز على حاله .. ومضيت فاستوثقت من رتاج الباب وقررت ألا أفتح الباب لأحد حتى تصحو البنت وترى أشياءها
واستلقيت على أريكة مواجهة للدولاب .. ومضيت أشرب الشاي على مهل في انتظار أن تصحو من نومها
وكانما أرادت أن تزيد قلقي ومخاوفي فنامت طويلا ولم تصح إلا بعد أن هبط الليل .. كانت متعبة مستبشرة
كان أول مافعلته عندما خرجت من جناحها أن نادتني .. فلما رددت قالت : الحمد لله .. الآن أحس أن إلى جانبي رجلا .. كم أنا سعيدة لوجودك ..
كانت في أجمل صورها .. نظرت إليها طويلا فأدركت أنها أفاقت من النوم من زمن .. ولكنها أطلقت وقتا طويلا في التجمل .. كان شعرها الحريري مرسلا على جوانب وجهها كأنه خيوط من ذهب .. كانت زرقة عينيها صافية كأصفى ماتكون السماء في اليوم الجميل .. كان وجهها الوردي أيضا يتحدث عن ذوق باريس وفن باريس في تجميل ذات حواء .. وكانت تضحك كأنها طفلة .. وجلست على البساط إلى جواري وصبت لي الشاي وعندما أحسست منها هذه المودة كلها قلت لها :
- قومي وانظري فوق هذا الكونسول ..
- ماذا هناك .. ؟
- انظري أولا ..
وقامت ونظرت وصرخت قائلة :
- بابلي .. مصوغاتي .. جواهري .. نقودي ..
ثم التفتت نحوي وفي عينيها فزع وريبة واتهام !
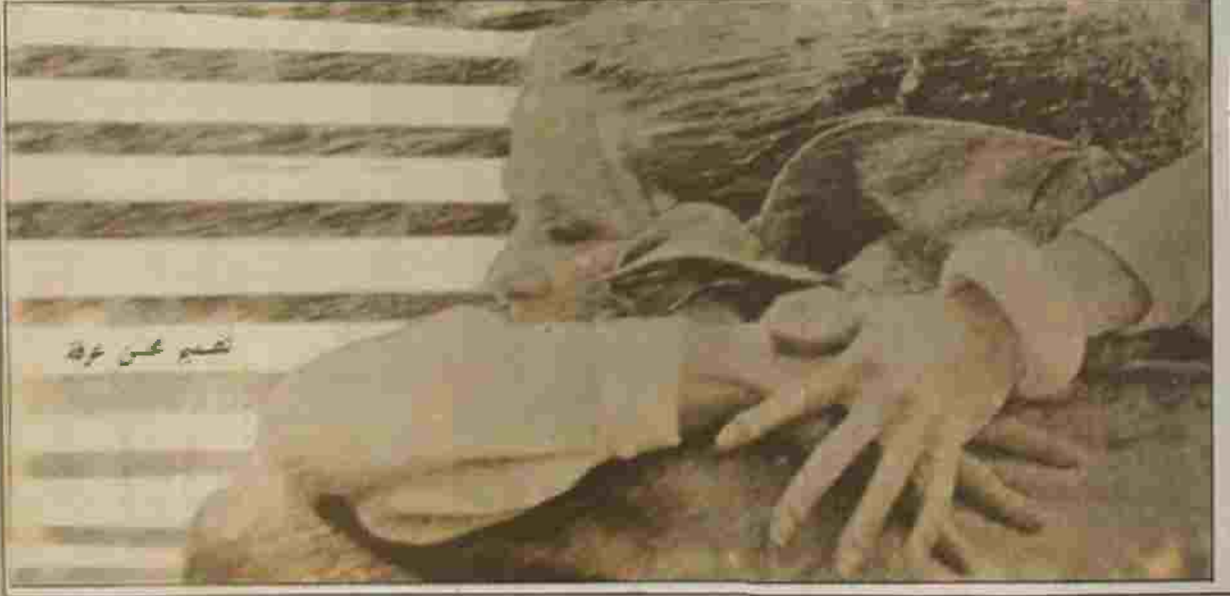
البقية في العدد القادم